الفنون الإسلامية

نشأة الفنون الإسلامية:

(المساجد والمصاحف):

ما إن دخل النبي ﷺ المدينة المنورة عقب الهجرة حتى أمر ببناء مسجد يقيم به الصلاة، ثم خطط المسجد وأعدت مواد البناء من الحجارة والطين وجذوع النخيل وغير ذلك، واشترك النبي ﷺ وصحابته في أعمال البناء حتى تمت إقامة المسجد النبوي الشريف كأول عمل معماري مهم في الإسلام.

وتم إعمار هذاالمسجد الذي أخذت تبنى على نمطه المساجد في الإسلام، وذلك على سبيل الاقتداء بالسنة النبوية الشريفة، ومن أمثلة تلك المساجد مساجد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والمسجد الأموي في دمشق[1].

وفي مباني المساجد تطورت العناصر المعمارية والزخرفية التي انتقلت إلى سائر أنواع المباني الإسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك، مثل الأعمدة والعقود والمداخل والقباب والزخارف الهندسية والنباتية والكتابية وغيرها.

وعن طريق العناية بأثاث المسجد والرغبة في تجميله نشأت الفنون التطبيقية الإسلامية، إذ تطورت فنون المعادن مثلاً بفضل عناية المسلمين

---

(١) د. حسن الباشا، عمارة المساجد، الحرم النبوي الشريف، مجلة منبر الإسلام، العدد ٣، السنة ٢٦، ص١٧٧-١٨٤.

بأثاث المسجد المعدني من أباريق وثريات وشمعدانات ومساند، وتطورت كذلك الصناعات الخشبية بمختلف أنواعها في ضوء الاهتمام بالأثاث الخشبي في المسجد من منابر وكراس، وتطورت فنون الزجاج عن طريق العناية بمصابيح الإضاءة والنوافذ. وارتقت فنون السجاد تبعًا للاهتمام بفرش المساجد، بل إن هذا الفن الذي نبغ فيه المسلمون، وكاد أن يختص بهم وحدهم استمدوا اسمه من لفظة المسجد نفسها[١].

وبالإضافة إلى المسجد النبوي الشريف كان هناك محور آخر تكونت حوله أنواع أخرى من الفنون الإسلامية، وهو المصحف الشريف، وقد تم جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثم نسخه وتوزيعه على سائر الأمصار في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكما كان لهذا العمل أهميته في توحيد رسم القرآن وفي حفظه بفضل الله تعالى الذي تكفل بذلك ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٢] كان له أثره في نشأة فنون إسلامية احتلت المكانة الأولى بين سائر الفنون وهي فنون الكتاب من خط وتذهيب وتزويق وتجليد[٣].

وهكذا نشأت الفنون الإسلامية حول هذين المحورين: المسجد والمصحف وارتقت حتى بلغت القمة، وانتشرت بحيث صارت من أوسع فنون العالم انتشاراً.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٣) د. محمد عبدالعزيز مرزوق، المصحف الشريف، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠، ص٩-١٣.

واستوحى الفن الإسلامي في نشأته وتشكيله روح الإسلام وتعاليمه، فمن جهة يلاحظ أن الفن الإسلامي نشأ بدافع الرغبة في الجودة والإتقان، وهذه الرغبة مستمدة من الإسلام نفسه، فقد جاء في محكم كتابه جل جلاله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] وقال الرسول ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**».

والحق أن هذا الدافع يفسر لنا الدرجة العظيمة من الإتقان التي بلغتها القنون الإسلامية، ومن المعروف أن المبالغة في الإتقان تؤدي بطبيعتها إلى التغميق والتزويق والزخرفة، ومن جهة أخرى تأثر الفن الإسلامي بدافع آخر هو الرغبة في تجميل الحياة والاستمتاع بها، وهذه الرغبة مستوحاة من العقيدة الإسلامية[2].

وقد اشتهر العرب قبل الإسلام ببناء الحصون والقلاع والأسوار، ومن أشهر هذه الحصون قصور غمدان، وهي متينة البنيان ومشيدة بالصخور الضخمة من عدة طبقات، وانتشرت هذه الحصون حتى وصلت بيزنطة، كما أن قصور الأمويين قد شيدت على نمط هذه الحصون مثل قصر المشتى في أريحا بفلسطين[3]. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الحصون والبروج والقصور والغرف والجدران، كما ضرب المثل بالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٢) د. حسن الباشا، مرجع سبق ذكره، ص١٤٦.

(٣) د. حسن الباشا، فنون التصوير الإسلامي في مصر، ص٢٠.

ومما لا ريب فيه أن العرب كانت لهم خبرة أيضًا بأنواع الفنون التطبيقة مثل صناعة الأسلحة والحلي والنسيج ودباغة الجلود وما أشبه ذلك. وهذا يدل على أن العرب كانت لهم تقاليد فنية عند ظهور الإسلام.

نخلص من هذا كله بأن العرب كانت لهم تقاليد فنية عند ظهور الإسلام؛ ولذلك لم يكونوا عالة على الحضارات الأخرى في المجال الفني، وحينما دخل العرب المسلمون الأقطار الخاضعة للفرس والروم، وسارع أهلها إلى الانضواء تحت راية الإسلام والعمل في ظله، وساعد تفوق العرب السياسي والحربي والخلقي في ذلك الوقت على سيادة الطابع العربي الإسلامي في هذه الأقطار، وكان العرب المسلمون على قسط وافر من سعة الأفق السياسي والحضاري، بحيث حافظوا على التقاليد الفنية والصناعية النافعة في البلاد التي فتحوها، بل عملوا على تقدمها وتطورها في الطريق السليم، واستطاعت الدولة الإسلامية الناشئة بفضل الروح الإسلامية الجديدة والخبرات الفنية والصناعية المتنوعة التي تتمتع بها شعوبها من عرب وفرس وروم وقبط وغيرهم أن تبتكر فنًا جديداً يمتاز بامتزاج التقاليد الصناعية المختلفة وسيادة الطابع العربي الإسلامي[1].

وإذا كانت الفنون تختلف فيما بينها من حيث موقفها من تقليد الطبيعة والقرب من الواقع والميل نحو الزخرفة والمثالية، فإنه يمكن القول بأن الفن الإسلامي كان بطبيعته فنًا زخرفيًا بالدرجة الأولى.

(١) د. حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، ص٢٠.

ويتجلى الطابع الزخرفي في الفن الإسلامي بشكل واضح في استخدام الفنانين المسلمين في تزويق منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية، ومن زخارف هندسية ونباتية بالإضافة إلى الزخارف الكتابية، ومن الملاحظ أنه في مجال استخدام الكائنات الحية كان الفنان الإسلامي ينحو نحواً زخرفيًا بعيداً عن محاكاة الطبيعة.

ومن حيث استخدام الزخارف النباتية يلاحظ أن الفنانين المسلمين استخدموا عناصر زخرفية كثيرة مستمدة من عالم النبات من أشجار وأوراق وغصون وأزهار وثمار وغير ذلك، كما طوروا نوعًا من هذه الزخارف النباتية، أطلق عليها الأوربيون اسم (أرابسك) نسبة للعرب، وكانت هذه الزخرفة النباتية من الزخارف الإسلامية الأصيلة التي انفرد بها الفن الإسلامي، وتتألف هذه الزخرفة من عناصر زخرفية مكونة من أفرع نباتية تتداخل أو تتشابك معًا بطريقة منسقة جميلة.

وبلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة لا يدانيه فيها أي فن آخر، وطور المسلمون الزخارف الإسلامية على أسس مدروسة، وابتكروا أنواعًا من هذه الزخارف لم تعرفها الفنون الأخرى. ومما يجدر ذكره أن الفنون الإسلامية تحمل في طبيعتها بذور التجديد والاختلاف، ومن ثم انقسمت إلى عدة طرز متميزة، ولكن هذه الطرز ظلت يوحد بينها طابع العروبة والإسلام الذي جعل عناصر الوحدة فيها أقوى من عوامل الاختلاف[1].

(١) د. حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص١٤٩-١٥٠.

وقد ساعدت ظروف كثيرة على انتقال التأثيرات الفنية الإسلامية إلى أوربا. ويرجع الكثير من الفضل في نشأة بعض الفنون الأوربية إلى الفن الإسلامي، مثل الفن القوطي، وقد انتقلت التأثيرات الفنية الإسلامية إلى أوربا عن طريق إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، كما كانت الحروب الصليبية والتجارة بين الجمهوريات الإيطالية ومدن الشام ومصر، وقدوم الأوربيين للحج إلى فلسطين ذات أثر كبير في تبادل العناصر الفنية بين الإسلام وأوربا[1].

الكتابة العربية (الخط العربي):

من أهم الفنون التي ازدهرت في العالم الإسلامي الخط العربي أو الكتابة العربية، وبظهور الإسلام أخذ شأن الكتابة العربية في الازدهار إذ لم يلبث أن انتشر العرب في كثير من أجزاء العالم المتحضر في ذلك الوقت وامتد نفوذ العرب المسلمين من الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والأدبية، وتبع ذلك التمكين للكتابة العربية التي لم يقتصر نفوذها على اللغة العربية بل امتد خارج نطاقها فصارت تكتب بها فيما بعد لغات أخرى غير عربية مثل الفارسية والأوردية والتركية وغيرها.

وكان لكتابة القرآن ولقراءته في المصاحف أثر كبير في إعلاء شأن الخط العربي وفي الرغبة في تحسينه وتزيينه وفي النظر إليه بإكبار وبتأمله بمتعة روحية مما أدى إلى زيادة العناية به والمبالغة في تزويقه وتجميله.

(١) د. زكي محمد حسن، تراث الإسلام، ص٣-١٠.

وساعد على العناية بالخط العربي أيضًا ما تشتمل عليه تعاليم الإسلام من تقدير الكتابة إذ أقسم بها الله سبحانه وتعالى فقال جل شأنه: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(١). وامتدح سبحانه وتعالى فقال: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(٢). كما أشير إليها في أول الآيات التي نزلت على النبي ﷺ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣). كما أن العناية بالكتابة مظهر من مظاهر العلم والتحضر والمدنية التي عمل الإسلام على تنميتها ونشرها، والكتابة في الوقت نفسه من أهم وسائلها، ومن الملاحظ أنه قرن بين العلم والكتابة في الآيات الكريمة السابقة(٤).

وقد احتل الخط العربي مكان الصدارة بين الفنون الأخرى، ولم يقف دوره عند حد استخدامه كوسيلة للتعليم أو للمكاتبات العادية أو الرسمية أو تدوين المصاحف، بل استخدم أيضًا كعنصر زخرفي أثري وفي الكتابات التذكارية، وزينت به العمائر، وأقبل المسلمون على اقتناء نماذجه الجميلة. والحق أن الخط العربي لعب في عالم الفن والزخرفة دوراً مشهوداً فاق كثيراً من الكتابات الأخرى.

ويوجد نوعان رئيسان من الخطوط هما: الخط الكوفي وخط النسخ؛ وينقسم الخط الكوفي إلى عدد كبير من الخطوط من أبرزها كوفي بسيط، كوفي مزخرف، كوفي مزهر، كوفي معماري، كوفي مربع.

---

(١) سورة القلم، الآية: ١.

(٢) سور الإنفطار، الآية: ١١.

(٣) سورة العلق، الآيات: ٣-٥.

(٤) د. حسن الباشا، الخط العربي الأصيل، ص٢٥.

وكذلك ينقسم خط النسخ (الخط المقور) إلى عدة أقسام وهي: خط النسخ، خط الثلث، الخط الفارسي، الخط الديواني، الخط المايوني (السلطاني العثماني) خط الطغراء، خط الرقعة[1].

العمارة وبناء المدن وتخطيطها:

في عهد عمر رضي الله عنه كثرت الفتوح واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وبعدت على المسلمين الشقة، واحتاج الجند إلى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر، حتى يلقوا عددهم والسفر لم ينتقص من قوتهم، فكان لابد لهم من منازل يقضون فيها فصل الشتاء إذا حل، ويأوون إليها إذا رجعوا من غزوهم، ومن ثم وجدت الدوافع والأسباب لبناء المدن وتخطيطها[2].

البصرة:

البصرة أقدم المدن الإسلامية، وهي تقع على شط العرب (ملتقى دجلة والفرات)، وموقعها قريب من الماء والمرعى. وقد ولى عمر بن الخطاب عليها أبا موسى الأشعري، وخطط الناس لبناء المدينة، وبنوا المنازل بالطين (اللبن) وبنى أبو موسى المسجد، ودار الإمارة باللبن والطين، وسقفها بالعشب، وشوارعها واسعة. ونظراً لموقعها المتوسط بين الشام وفارس ازداد العمران بها، واتخذها الأمويون مقراً لإمارة العراق، فاتسعت عمارتها وزادت مساحتها.

---

(١) د. حسن الباشا، المرجع السابق، ص٢٦. وانظر كذلك د. حسن الباشا، الحضارة الإسلامية، ص١٧١.

(٢) د. أبو زيد شلبي، الحضارة الإسلامية، ص٢٣٣.

وكانت في أيام العباسيين ملتقى التجار، وتجارتها كانت تمتد شرقًا إلى الهند والصين، وغربًا إلى أقصى بلاد المغرب، وجنوبًا إلى الحبشة، واشتهر أهلها بالأسفار التجارية إلى كل الجهات. وكانت مياه البصرة مرسى مئات السفن التجارية، التي كانت تحمل مختلف أنواع التجارات منها وإليها، فتكاثرت ثروتها، وبنى أهلها القصور والحدائق وأنشؤوا البرك والميادين[١].

الكوفة:

أمر الخليفة عمر بن الخطاب ببناء هذه المدينة، وكلف أبو الهياج بن مالك الأسدي بالإشراف على بنائها، وكان أول شيء أقامه هو مسجد الكوفة، وبنوا لسعد بن أبي وقاص داراً له، وجعل فيها بيت مال المسلمين[٢].

وقد اتخذ علي -كرم الله وجهه- الكوفة مقراً لخلافته، وما زال لها شأن عند الشيعة إلى يومنا هذا، وفي ولاية عبيدالله بن زياد بنى المسجد وأنفق عليه نفقات طائلة حتى أصبح فريداً بين مساجد عصره. ثم اتسعت الكوفة وامتد عمرانها، وبنى فيها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربع وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لليمن[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٩٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص١٩٤-١٩٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٤٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٧، ص٢٩٧.

والتخطيط الذي وضع للكوفة ينبئ عن نظام هندسي جميل فضلاً عن كونه يتلاءم مع طبيعة العرب، إذ لم يحجب هذا التخطيط هواء البادية عن أهلها الذين نشؤوا في بادية الجزيرة العربية، فعاد إليهم نشاطهم واستردوا قوتهم وعافيتهم.

وببناء البصرة والكوفة معًا ارتفع شأنهما، وعظم أمرهما، وأصبح لهما شهرة عظيمة في قيادة الجيوش، وحمل لواء العلم والأدب في العالم الإسلامي كله[1].

الفسطاط:

الفسطاط أول مدينة اختطها المسلمون في مصر بعد الفتح الإسلامي عام ٢١هـ، وبها يقع جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة. وكان مكانها هو معسكر جيش المسلمين حينما حاصروا حصن بابل المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مارجرجس. ثم اتجه عمرو بن العاص بعد ذلك لفتح الإسكندرية، وتم له ذلك، وأراد أن يسكن المسلمون في الإسكندرية، فاستأذن سيدنا عمر بن الخطاب في ذلك فرفض عمر بسبب وجود ماء يحول دون قدوم المسلمين إليها. فرجع إلى موضع الفسطاط، وكلف أربعة من أفاضل المسلمين لتخطيط المدينة فقسموها بين القبائل، ثم أخذت مدينة الفسطاط تتسع وتزداد عمارتها وتعلو، فبعد أن كانت الدور تبنى من طابق واحد أصبحت تبنى من عدة طوابق، وزاد عدد السكان الذين يقيمون فيها حتى بلغت أعدادهم ما يقارب المئتين[2].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٨٩.

(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٧.

وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال، وقد تكلم المؤرخون العرب عن مساجدها، وطرقها وحماماتها، وأشاد الشعراء بهذه المدينة الإسلامية، التي فاقت في كثير من نواحيها البصرة والكوفة. وقد ظلت الفسطاط قاعدة البلاد المصرية، ومقراً للأمارة فيها، حتى بنيت مدينة العسكر، في سنة ١٣٣هـ، في عهد صالح بن علي العباسي أول ولاة العباسيين فانتقل إليها أمراء مصر.

ولما قدم صلاح الدين الأيوبي مصر ٥٧٢هـ، أمر ببناء سور على الفسطاط، والقاهرة، والقلعة التي على جبل المقطم بلغ طوله سبعة أميال ونصف[١].

جامع عمرو بن العاص:

هو أول جامع أقيم في مصر، ويعرف بالجامع العتيق. وقد بناه عدد من كبار الصحابة، وتمت توسعته في عهد الخليفة المأمون، وكانت تقام فيه حلقات الدروس بعضها للإرشاد والآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والآدب، فكان جامعة إسلامية ذاع صيتها في الآفاق، وصار يقصدها الطلاب من مختلف الأقطار.

ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر سنة ١٩٩هـ، ألقى دروسه في هذا الجامع وصار قطب العلماء فيه، وظلت حلقات الدروس في ازدياد، حتى إنها بلغت ٣٣ حلقة في سنة ٣٢٦هـ، منها ١٥ حلقة للشافعية، ١٥

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ٢، ص٢٤٦.

للمالكية، ٣ حلقات للأحناف. وزادت هذه الحلقات حتى بلغ عددها ١١٠ حلقات، وكان في كل حلقة ٢٠ مستمعًا، ويقوم بتعليمهم وتثقيفهم أئمة الفقه والقراء وأهل الأدب والحكمة[١].

وكان إلى جانب هذا دار حكم يجلس فيه الحاكم للنظر في مصالح الناس، كما كان دار قضاء يجلس فيه القاضي للفصل في الخصومات، وكان به بيت لحفظ مال المسلمين يسمى بيت المال[٢].

بغداد:

بغداد هي دار السلام، وأزهى مدن الزمان بناها الخليفة أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة دولته ومركز حكمه. وكان أبو جعفر المنصور قد أقام في الهاشمية في أول الأمر، ثم كره الإقامة والسكنى فيها لأنها قريبة من مدينة الكوفة، ولم يكن يأمن على نفسه من أهلها، فقرر اختيار موضع جيد ليبني فيه مدينته. فاختار موقعًا مناسبًا بعد طول عناء، وكان من الطبيعي أن يكون الموقع بصفة عامة أقرب إلى الولايات الشرقية، حيث قامت الدعوة العباسية ووجد مؤيدوها. وقد وقع الاختيار على موقع قرية ساسانية (فارسية) قديمة تسمى بغداد. ومعناها عطاء الله. ويقع هذا المكان في أرض السواد الخصبة بين العراق وإيران، وتتقابل عنده طرق التجارة الرئيسة البرية والبحرية، كما يمتاز بحسن الجو صيفًا وشتاءً[٣]. وشيد بجوار قصر الحكم المسجد الجامع.

---

(١) د. حسن عبدالوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص٢٣-٣٠.

(٢) المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٥٣-٢٥٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص٢٣١.

وبعد اختيار الموقع بدأت مرحلة الإعداد والتخطيط، واشترك في تخطيط المدينة خمس من المهندسين، واستغرق بناؤها مدة عامين (١٤٥-١٤٧هـ) وكانت المدينة مدورة، "وكان لها سور عرضه خمسون ذراعًا، وارتفاعه عشرون ذراعًا، وجعل لها أربعة أبواب يبتعد كل باب عن الآخر مسافة ميل، وبجانب كل باب أبنية كبيرة لإقامة الفرق العسكرية"، وكان قصر الخليفة وجامعها في وسطها، وبنى قبتها الخضراء فوق قصره ارتفاعها ٨٠ ذراعًا، وفي أعلاه تمثال فارس بيده حربة، وهي تاج بغداد ومأثرة من مآثر بني العباس[١].

وكان لميزة موقع بغداد بالإضافة إلى مركزها السياسي والاجتماعي ما أدى إلى سرعة عمرانها، إذ لم تقتصر المباني على المدينة المدورة بل شيد حولها الأحياء والقصور، وامتد العمران عدة أميال على جانبي نهر دجلة، كما أقيمت المطاعم وأماكن الترويح. وبلغت مدينة بغداد أوج عظمتها في عهد الرشيد، وساعدت انتصاراته الحربية على البيزنطيين على تأكيد عظمة عاصمته التي فاقت مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، كما فاقت حضارتها حضارة أقوى دولة في أوربا وهي دولة شارلمان. وقد أذهلت هدايا الرشيد حاشية شارلمان وخاصة الساعة[٢].

وقد استخدمت أوربا في العصور الوسطى كثيراً من المعماريين العرب

(١) الشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، ص٧٧-٧٩.

(٢) محمد الخضري، المرجع السابق، ص٧٧-٧٩.

منذ عصر شارلمان، فانتفعت من خبرتهم وفنهم ونبوغهم في العمارة والبناء[١].

ولقد كان للخليفة العباسي في بغداد بلاط فخم من حيث العمارة أو الحاشية والحرس أو الحريم. وكانت قصور الخليفة المؤثثة بأفخم الأثاث، تشتمل على قاعات العرش واستقبال السفراء ودواوين الحكم والإدارة ومجالس العلم والسمر ودور الحريم ومساكن الحرس والجند ومنازل الموظفين، فضلاً عن الحدائق والميادين والملاعب وغيرها[٢].

وعلاوة على ذلك، فقد أصبحت بغداد مركزاً تجارياً ترد إليها السفن المحملة بالتجارة والقوافل من مختلف أقطار العالم من الصين شرقًا ومن أوربا غربًا، وكذلك تصدر منها المنتجات المختلفة إلى شتى بقاع العالم. كما كان يفرد بها لكثير من أنواع السلع أسواق خاصة[٣].

وكانت طبقة التجار في بغداد من أكثر طبقات المجتمع ثراء، كما نافسوا كبار رجال الدولة في الأخذ بأسباب الرفاهية.

وكان لاهتمام الخلفاء وأمرائهم بالتجارة أثر واضح في العناية بالطرق التجارية، وحراستها وتأمينها، فحفروا الآبار، وأقاموا المنائر في المرافئ والثغور، واهتموا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحلهم من الأعداء وقراصنة البحر. ومن أهم هذه الطرق:

---

(١) أبو زيد شلبي، المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٢) الشيخ محمد الخضري، المرجع السابق، ص٧٩.

(٣) د. حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص٢١٣.

١- الطريق البري من بغداد إلى الصين.

٢- الطريق البري من الإسكندرية إلى بلاد المغرب.

٣- الطريق البري من شمال إفريقية إلى نيجريا والمنطقة الاستوائية.

٤- الطريق البحري من البصرة إلى الهند والصين.

٥- الطريق البري البحري من بغداد إلى روسيا.

٦- الطريق البري البحري من سواحل الشام إلى شرق إفريقية[١].

وأصبح الكثير من المدن والموانئ البحرية مراكز تجارية هامة. ولم تكن بغداد مركزاً سياسياً وتجارياً فحسب، بل كانت أيضاً مركزاً ثقافياً مزدهراً تنتشر منه الثقافة إلى سائر أنحاء الدولة بل وإلى أوربا. وقد أسست فيها بيوت الحكمة والمدارس[٢]، وخزائن الكتب والبيمارستانات (المستشفيات)، وازدهرت فيها حركة التأليف والترجمة، ونشأ فيها أشهر علماء الإسلام. وقد قدر عدد سكان بغداد في القرن الخامس الهجري (١١م) بنحو ٣ ملايين نسمة، وكان بها ٦ آلاف حمام و٣٠ ألف زورق و٢٧ ألف مسجد[٣].

كما ازدانت بغداد بأروع المواكب واحتفلت بالأعياد والمواسم، واستمتع القادرون من أهلها بحياة الترف واللهو ومختلف الألعاب

(١) ادم متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٣٠٤.

(٢) د. عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم عند العرب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٤٠-٤٥.

(٣) ناجي معروف، علماء المستنصرية، ص١ وما بعدها.

الرياضية، فمارسوا رياضة الصيد وسباق الخيل وقذف الرمح ورمي القوس والمبارزة بالسيف ولعبة البولو واللعب بالكرة وبالمطارق الخشبية، كما أقاموا الولائم حيث كانت تقدم أشهى الأطعمة وسهروا في الحفلات المسائية الراقصة، وعنوا بالمجتمعات الشعرية ومجالس العلم والأدب والمناظرة[١]. وظلت بغداد عاصمة الخلافة العباسية من سنة ١٤٥-٦٥٦هـ، باستثناء مدة امتدت خمسة وخمسين عامًا حين انتقلت الخلافة إلى مدينة سامراء. وهي من سنة ٢٢١-٢٧٦هـ/٨٣٦-٨٨٩م. وبعد زوال الخلافة العباسية ظلت بغداد عاصمة العراق في مختلف عصوره ولا تزال كذلك حتى اليوم[٢].

طرز العمارة الإسلامية:

عني العرب المسلمون بنشر العمران في الأقطار التي دخلوها، وكان من أهم وسائلهم إلى ذلك إنشاء المدن الجديدة. وقد بلغ عدد المدن الجديدة التي أسسها العرب حتى نهاية العصر الأموي نحو خمس وعشرين مدينة، ومن هذه المدن البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر، والقيروان في شمال إفريقية. وسار العباسيون على الخطة نفسها إذ أنشئ في عهدهم كثير من المدن الجديدة، كما عمرت مدن أخرى قديمة. ومن المدن التي أنشئت في العصر العباسي الهاشمية في العراق، والعسكر والقطائع في مصر، ورقادة وسوسة ووهران وفاس في المغرب. أما المدن

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، ص٥٤٥-٥٤٦.
(٢) د. حسن الباشا، الحضارة الإسلامية، ص٢١٥.

القديمة التي حظيت بازياد العمران فهي كثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وحلب وغرناطة وطليطلة والإسنكدرية.

وبالإضافة إلى المدن شيد المسلمون القصور الضخمة بملحقاتها ومرافقها اللازمة. ومن أشهرها قصر الحيرة الشرقي في العصر الأموي وقصر البلكوازه في العصر العباسي[1].

مظاهر الطراز الإسلامي:

١- اتخاذ الأعمدة والمنحنيات والمشربيات (نوافذ بستائر خشبية شبكية) والشرفات والقباب والمآذن والمدخل الملتوي، وبعض هذه المظاهر مستوحى من بيئتهم وأحوال معيشتهم.

٢- المدن كانت تحاط بأسوار منيعة، ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عند الحاجة كأسوار بغداد.

٣- كانت في وسط المدينة ساحة متسعة بها أكبر مساجدها.

٤- البيوت تبنى داخل ساحة الدار، وليس لها نوافذ تطل على الشارع.

٥- كان يخصص حي من أحياء المدينة لأهل كل حرفة يعرف باسمهم، كما أن بغضهم للنظام المركزي جعلهم يتجمعون قبائل

(١) د. فريد شافعي، العمارة والبيئة العربية الإسلامية، مجلة الدارة، العدد ٢، ص٣٤.

منفصلة أينما حلوا، لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها وحماماتها ومقابرها، وهذا يلائم ما درجوا عليه من الحرية واعتبر ذلك بالكوفة والفسطاط.

٦- إن اختيار موقع المدينة وتخطيطها يكون قريب الشبه من باديتهم، وأحوال معيشتهم من حيث الموقع، واتساع الخطط، وهم قد برعوا في تخطيط المدن وفاقوا غيرهم، كما يتجلى في كثير من المدن التي بنوها.

٧- إن زخارفهم كانت مستمدة من المناظر الطبيعية، والأشكال الهندسية والنباتية، وتحاشوا التماثيل والصور المجسمة، لأنها محرمة عليهم، حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان.

٨- إن تخطيط المساجد كان يقوم على أربعة إيوانات مسقوفة، وعقودها محمولة على عمد من الرخام، وأكبرها إيوان المحراب، ويتوسط الإيوانات صحن مكشوف. وكثيراً ما تتوسطه قبة في أعلاه[١].

وهكذا نجد أن الخلفاء المسلمين (في العصور المختلفة بدءاً من العصر الأموي وحتى العصر العثماني) اهتموا بالمنشآت العمرانية كبناء القصور والفنادق والحمامات والمدارس، كما اهتموا ببناء المنشآت الحربية كالأسوار حول المدن والقلاع، قلعة صلاح الدين في القاهرة (قلعة الجبل) في المقطم، وكذلك اهتموا ببناء المنشآت الدينية كالمساجد (الجامع الأزهر في مصر وجامع القرويين في فارس)[٢].

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٠٣.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، ص٦٠٢-٦٢٤.

وهكذا فقد مارس المسلمون المعماريون (فن العمارة) وبنوا العمائر من مساجد وقصور ومدارس وقلاع وأبواب مدن ومداخل أسواق وأسوار مدن وحمامات ووكالات وخانقاوات وأربطة ومطابخ وبمارستانات ومساكن، وغير ذلك من المؤسسات الدينية والمدنية والعسكرية، كما خططوا المدن وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر. وتتميز العمارة الإسلامية بوحدات وعناصر معمارية خاصة بها، كالمآذن والقباب والمداخل والعقود والأعمدة والتيجان والمحاريب. ومن أهم العناصر المعمارية الإسلامية (المقرنصات) وهي عبارة عن أشكال زخرفية على هيئة صفوف من المنحنيات أو المحاريب الصغيرة بعضها فوق بعض. وقد اتخذت المقرنصات في الزخرفة في فنون تطبيقية مثل الخشب والخزف والمعادن وغيرها. وتعتبر المقرنصات من العناصر الإسلامية المميزة الأصيلة التي انفرد بها الفن الإسلامي[1].

الفنون التطبيقية:

احتلت الفنون التطبيقية مركزاً أساسيًا بين الفنون الإسلامية المختلفة إذ تفوق المسلمون فيها على غيرهم من الشعوب ومن أهمها فن النسيج والخزف وصناعة الورق[2].

(١) د. فريد شافعي، العمارة العربية، ص٥٨١-٦٢٢.

(٢) د. زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية، ص٧ وما بعدها.

مصانع النسيج وطرزه:

ومن الصناعات والفنون الهامة التي حظيت بعناية خاصة في ذلك العصر فن النسيج؛ وذلك لأنه من أهم مظاهر التحضر والتمدن من جهة، كما أن الخلع المنسوجة كانت من أبرز مراسم التشريف والتكريم التي وصلت درجة كبيرة من التنظيم والإتقان في الدولة الإسلامية.

وبدأت العناية بالنسيج في العصر الأموي ثم ارتقت وتقدمت تقدمًا سريعًا في العصر العباسي، واتجهت صناعة النسيج اتجاهين: اتجاهًا شخصيًا واتجاهًا رسميًا، فمن جهة وجدت أنوال للنسيج أو أدوات للنسيج كانت تشرف عليها الدولة وكان يطلق عليها اسم الطراز(١).

وقد جرت العادة أن تتخذ كل دولة لنفسها طرازًا أو عبارة متميزة كشعار خاص بها، وكان الطراز المستعمل في مصر والشام عند فتح العرب لهما هو طراز الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية، واستمر هذا الطراز مستعملاً إلى أن نقله عبدالملك بن مروان إلى العربية، وجعله «لا إله إلا الله» واستخدم الطراز العربي في سائر أقطار الدولة الإسلامية وظل كذلك في جوهره، وكان يتضمن عادة اسم الخليفة أو السلطان أو ذوي النفوذ من الوزراء والأمراء.

وكانت الثياب التي يخلعها الخلفاء على رجال الدولة تصنع من النسيج ويهديها الخلفاء لرجال الدولة من باب التشريف وعلامة على

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص٢١٩.

رضاهم عنهم وإقرارهم في مناصبهم، وصارت دور النسيج أو مصانع النسيج تسمى بالطراز، وصار المشرف على هذه الدور يسمى صاحب الطراز[١].

وبدأت الدولة تنشئ مصانع النسيج أوالطراز منذ أواخر العصر الأموي، ثم تطورت هذه المصانع وازداد تنظيمها في العصر الفاطمي والعباسي، وعرف العالم الإسلامي نوعين من الطراز أو من مصانع النسيج هما: طراز الخاصة، -أي الدورالتي تقوم بإعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة، -وطراز العامة- أي الدور التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب[٢].

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من المدن في العالم الإسلامي اشتهرت بصناعة النسيج ولا سيما في مصر وإيران والعراق، وكان القطن والكتان والصوف من مواد النسيج في مراكز صناعة النسيج، ففي مصر كانت دمياط والإسكندرية والفيوم وغيرها. ومن مراكز صناعة النسيج في إيران مرو وأصفهان وشيراز ونيسابور[٣].

الفخار والخزف:

فن الخزف من أهم الفنون التطبيقية الإسلامية. والخزف بصفة خاصة من المواد الأثرية القيمة، وترجع قيمته الأثرية إلى عوامل كثيرة، أهمها:

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص٢١٩.

(٢) fewis,B. Thi Arabs in History, pp. 86-87.

(٣) د. حسن الباشا، الحضارة الإسلامية، ص١٧٥-١٧٦.

أولاً- الكثرة: وذلك لأن مخلفاته تفوق غيره من أي مادة أثرية أخرى، والحق أن أكثر ما يستخرج من الحفائر الأثرية هو الفخار، وترجع كثرته إلى أمور منها: ١- كثرة ما يصنع منه لشدة الحاجة إليه، فهو كثير الاستعمال في الحياة اليومية والمعيشية. ٢- رخصه. ٣- سهولة استعماله. ٤- سرعة تلفه عن طريق الكسر. ٥- استحالة إعادة تشكيله بخلاف المواد الأخرى كالمعادن والزجاج. ٦- الاستغناء عنه بمجرد كسره أو تلفه. ٧- كثرة استخدامه في الطقوس الدينية القديمة لتقديم القرابين من الطعام أو الشراب ووضعه في القبور.

ثانياً- قيمته الأثرية، وعن طريقه يمكن تتبع مراحل التطور الحضاري والفني، ويرجع ذلك إلى كثرة ما يكتشف منه، ومن ثم استخدمه علماء الآثار والفنون والحضارة في تتبع المراحل الحضارية[١].

ثالثًا- لا شك أن صانع الفخار هو أقرب إلى روح الإنسان وأكثر صلة به من غيره، فهو يشعر بقوة الامتزاج بين الإنسان والطين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ**﴾[٢].

ولقد تقدمت الصناعات والفنون الخزفية في العصور الإسلامية تقدمًا كبيرًا، إذ أخضع المسلمون أقطارًا كان لها ماض عريق في هذه الفنون مثل: إيران والعراق والشام ومصر، وبفضل الحكم الواحد تبادلت هذه

(١) نفس المرجع.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

الأقطار الخبرات المتعلقة بهذه الصناعات مما أدى إلى حدوث نهضة في هذا المجال، بعد أن كان فن الخزف قد أخذ في التدهور قبيل الفتح الإسلامي، وذلك نتيجة للخلل العام الذي أصاب هذه الأقطار في تلك الفترة، ومن هنا أخذت صناعة الخزف في الازدهار تحت الحكم الإسلامي، ويبدو أن هذا الانتعاش قد بدأ بصفة خاصة في إيران والعراق حيث وجدت التقاليد العريقة في هذه الصناعة[1].

وعرف المسلمون أنواعًا كثيرة من الخزف أهمها ما يلي:

١-الفخار.

٢- الفخار المطلي بالميناء.

٣- الخزف.

٤- القاشاني.

٥- الفسيفساء الخزفية.

٦- السلادون.

٧- تقليد البورسلين.

وتختلف هذه الأنواع بعضها عن بعض من حيث نوع الطينة أو العجينة المستعملة، ومن حيث التشكيل ورقة الجدران والطلاء والزخرفة والأدوات المنتجة واستعمالها.

---

(٢) د. حسن الباشا، الحضارة الإسلامية، ص١٧٨.

ويصنع الفخار من الطين المحروق دون طلاء، وطينته أقل نقاءً من طينة الخزف، وجدرانه أكثر سمكًا وهو هش وأكثر مسامية، ومن حيث القدم هو أقدم من حيث استخدام البشر له، ويستخدم الفخار في صنع القلل والأزيار، حيث يستفاد من مساميته في تبريد الماء وفي بعض العصور طلي الفخار بالميناء.

ويستخدم في زخرفة الفخار طرق مختلفة منها، النقش والحفر والزخارف المجسمة أوالطبع بالأختام أو عن طريق القوالب. ومن الآثار الفنية الفخارية التي تستدعي الانتباه (شبابيك القلل).

وتمر صناعة الخزف بعدة مراحل وهي: الحصول على الطينة المناسبة، ثم تعجن الطينة إلى درجة معينة ثم تشكل إما باليد أو بالعجلة، وبعد التشكيل تجفف الأواني ثم تطلى ثم تحرق في أفران، ثم تطلى بالطلاء الزجاجي وقد يستخدم التذهيب وأنواع أخرى من الأطلية ثم يعاد حرقها لتثبيت الطلاء[1].

ولاريب أن الخزف يشترك في عمله عدد من الأفراد لكل منهم مهمة خاصة، كالعجان والخزاف والعامل والرسام أو الدهان. ومن أشهر مناطق صناعة الخزف بغداد والموصل والعراق، والري وقاشان في إيران، والفسطاط والقاهرة في مصر، ودمشق والرقة في الشام، ومالطة وغرناطة في الأندلس[2].

---

(١) د. زكي محمد حسن، فنون الإسلام. (باب الخزف).

(٢) زكي محمد حسن، المرجع السابق.

الورق:

ومن الصناعات التي ازدهرت ازدهاراً كبيراً في العالم الإسلامي، وكان لها أثر كبير في تقدم الحضارة سواء في الشرق أو في الغرب صناعة الورق.

ويعزى اختراع الورق إلى الصين التي يقال إنها ظلت محافظة على سر صناعته شأنه في ذلك شأن الحرير، غير أنه حدث في سنة ١٣٥هـ/ ٧٥١م، أن وقعت معركة عند سمرقند بين القوات الصينية وبين القوات العربية بقيادة زياد بن صالح، وأسفرت المعركة عن انتصار العرب وهزيمة الصينيين. وكان ضمن أسرى الصينيين بعض صناع الورق، ومنهم عرف العرب أسرار هذه الصناعة. وبعد أن صنع العرب الورق أصبح له أهمية حضارية، وانتشرت مصانع الورق في سمرقند وبغداد وسائر أقطار العالم الإسلامي، وعن طريق العرب انتقلت صناعة الورق إلى أوربا، حيث كان لها أثر كبير في النهضة الأوربية وفي اختراع الطباعة[١].

(١) Croswele. K. A. C. Arts ond Crafts of Islam, No. 1095. نقلاً عن حسن الباشا، ص١٨٩-١٩٠.

ويذكر كريزول أن المسلمين عرفوا صناعة الورق على يد صناع الورق الصينيين الذين أسرهم أبو مسلم في وسط آسيا في سنة ٧١٢م.

obeikandl.com